التشبيه في القرآن

للاستاذ أحمد أحمد بدوي

— ٥ —

ويهدف التشبيه في القرآن إلى ما يهدف إليه كل فن بلاغي فيه ، من التأثير في العاطفة ، فترغب أو ترهب ، ومن أجل هذا كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه الذي يزيد نفسيتهم وضوحاً ، ويصور وقع الدعوة على قلوبهم ، وما كانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور والإعراض .

يصور لنا حالهم وقد استمعوا إلى دعوة الداعي ، فلم تثر فيهم تلك الدعوة رغبة في التفكير فيها لمعرفة ما قد تنطوي عليه من صدق ، وما قد يكون فيها من صواب ، بل يحول بينهم وبين ذلك الكبر والأنفة ، وما أشبههم حينئذ بالرجل لم يسمع عن الدعوة شيئا ، ولم يطرق أذنه عنها نبأ ، بل ما أشبههم بمن في أذنه صمم ، فهو لا يسمع شيئاً مما يدور حوله ، وبمن أصيب بالبكم ، فهو لا ينطق بصواب اهتدى إليه ، وبمن أصيب بالعمى فهو لا يرى الحق الواضح ، وبذلك شبههم القرآن ، فقال : « ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً ، كأن لم يسمعها ، كأن في أذنيه وقراً ، فبشره بعذاب أليم » وقال : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمي ، فهم لا يعقلون » .

أما ما يشعرون به عند ما يسمعون دعوة الحق فضيق يملأ صدورهم ، ويثودهم حوله ، كهذا الضيق الذي يشعر به الصاعد في جبل ، فهو يجر نفسه ويلهث من التعب والعناء ، وهكذا صور الله ضيق صدورهم بقوله : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ، كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون »

وما دام هؤلاء القوم لا يستخدمون عقولهم فيما خلقت له ، ولم تصغ آذانهم إصغاء من يسمع ليتدبر ، فقد وجد القرآن في الأنعام شبيها لهم يقرنهم بها ، ويعقد بينهم وبينها وثيق الصلات ، فقال : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ، وأنت ترى في هذا التشبيه كيف مهد له التمهيد الصالح ، فجعل لهم قلوبا لا يفقهون بها ، وأعينا لا يبصرون بها ، وآذانا لا يسمعون بها . ألا ترى نفسك بعدئذ مسوقا إلى إنزالهم منزلة البهائم ، فإذا ورد هذا التشبيه عليك ، وجد في قلبك مكانا ولم تجد فيه بعدا ولا غرابة ، بل ينزل بهم حينا عن درجة الأنعام فيراهم خشباً مسندة .

وحيناً يريد أن يصورهم ، وقد جدوا في الهرب والنفرة من تلك الدعوة الجديدة فيقول : « فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » ، وقد تحدثنا عن هذا التشبيه فيما مضى .

أما هذا الذي آمن ثم كفر وانسلخ عن الإيمان واتبع هواه فقد عاش مثال الذلة والهوان ، وقد وجد القرآن في الكلب شبهاً يبين عن خسته وحقارته . ومما يزيد في الصلة بين الاثنين ان هذا المنسلخ يظل غير مطمئن القلب ، مزعزع العقيدة مضطرب الفؤاد ، سواء أدعوته إلى الإيمان ، أم أهملت أمره ، كالكلب يظل لاهثاً ، طردته وزجرته ، أم تركته وأهملته ، قال : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

ولم ينس القرآن تصوير حيرتهم ، واضطراب نفسيتهم ولمح في اضطرابهم صلة بينهم وبين من استوقد نارا ثم ذهب الله بنوره ، وبين السائر تحت صيب منهمر فيه ظلمات ورعد وبرق .

وصور وهن ما يعتمد عليه من يتخذ من دون الله أولياء بوهن بيت العنكبوت ، وحين أراد أن يتحدث عن أن هؤلاء الأولياء لن يستفيد منهم عابد وهم بشيء ، رأى في هذا الذي يبسط كفيه إلى الماء ، يريد وهو على تلك الحال أن ينقل الماء إلى فيه ، وما هو ببالغه شبيها لهم فقال : « له دعوة الحق »

والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

وتعرض لأعمال الكفرة كما سبق ان ذكرنا ولصدقاتهم التي كان جديراً بها أن تثمر وتزهر، ويفيدوا منها لولا أن هبت عليهم ريح الشرك فأبادتها ، كما تهب الريح الشديدة البرد بزرع كان ينتظر إثماره فأهلكته : « مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح ، فيها صر، أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته، وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون » .

وهناك طائفة من التشبيهات ترتبط بيوم القيامة لجأ إليها القرآن للتصوير والتأثير معاً ، فإذا أراد القرآن أن يبين قدرة الله على أن يأتي بذلك اليوم ، بأسرع مما يتصور المتصورون لجأ إلى أسرع مما يراه الرائي ، فاتخذه مثلا يؤدي إلى الهدف المراد ، فيقول : « ولله غيب السموات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شيء قدير »

ويقرب أمر البعث إلى الأذهان بتوجيه النظر إلى بدء خلق الانسان ، وأن هذا البعث صورة من هذا البدء فيقول : « كما بدأكم تعودون » وبتوجيه النظر إلى هذا السحاب الثقال يسوقه الله لبلد ميت ، حتى إذا نزل ماؤه دبت الحياة في أوصال الأرض خرج الثمر منها يانعا ، وهكذا يخلق الله الحياة في الموتى ، قال سبحانه : وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون»

وإذا جاء يوم القيامة استيقظ الناس لا يشعرون بأنه قد مضى عليهم حين من الدهر طويل منذ فارقوا حياتهم ، ويورد القرآن من التشبيه ما يصور هذه الحالة النفسية العجيبة ، فيقول « ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ، قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، وما كانوا مهتدين » ، وإذا نظرت إلى قوة التشبيه مقترنة بقوله : يتعارفون بينهم ، أدركت مدى ما يستطيع أن يحدثه في النفس من أثر . وقد كرر هذا المعنى في موضع آخر يريد أن يثبته في النفس ويؤكده فقال : « يسألونك عن الساعة إيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

ها هم أولاء قد بعثوا خارجين من أجداثهم في كثرة لا تدرك العين مداها ، وماذا يستطيع أن يرسم لك تلك الصورة ، تدل على الغزارة والحركة والانبعاث ، أفضل من هذا التشبيه الذي أورده القرآن حين قال: « خشعا أبصارهم، يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » . وحينا يصورهم ضعافا يتهافتون مسرعين إلى الداعي كي يحاسبهم فيجد في الفراش صوتهم ، فيقول : « القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » . ولا إخال أحدا لم ير الفراش يسرع إلى الضوء ، ويتهافت عليه في ضعف وإلحاف معا ، ولقد تناول القرآن إسراعهم مرة أخرى ، فشبههم بهؤلاء الذين كانوا يسرعون في خطوهم ، ليعبدوا أنصابا مقامة ، وتماثيل منحوتة ، كانوا متحمسين في عبادتها ، يقبلون عليها في رغبة واشتياق فيقول « يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون » .

ويتناول المجرمين ، فيصور ما سوف يجدونه يومئذ من ذلة وخزي ، ويرسم وجوههم وقد علتها الكآبة : « كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . أما طعامهم فمن شجرة الزقوم يتناولونها فيحسون بنيران تحرق أمعاءهم فكأنما طعموا نحاسا ذائبا أو زيتا ملتهبا ، وإذا ما اشتد بهم الظمأ واستغاثوا قدمت إليهم مياه كهذا النحاس والزيت تشوي وجوههم. قال تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم » وقال سبحانه : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه » ألا ترى التشبيه يثير في النفس خوفا وانزعاجا ؟

ويصور آكل الربا يوم القيامة صورة منفرة منه ، مزرية به ، فهل رأيت ذلك الذي أصابه مس من الشيطان فهو لا ينهض واقفا حتى يسقط ، ولا يقوم إلا ليقع ، ذلك مثل آكل الربا « الذين يأكلون الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس» ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا »

٢٢ . ٣٥

ولعب التشبيه دوراً فى تصوير يوم القيامة ، وما فيه من الجنة والنار ، ففى ذلك الحين ، تفقد الجبال تماسكها ، وتكون « كالعهن المنفوش » وتفقد السماء نظام جاذبيتها ، فتنشق ، ويصبح الجو ذا لون أحمر كالورد : « فإذا انشقت السماء ، فكانت وردة كالدهان » ، وأما جهنم فضخامتها وقوة لهبها مما لا يستطيع العقل تصوره ، ومما لا يمكن أن تقاس إليها تلك النيران التى نشاهدها فى حياتنا ، وحسبك أن تعلم أن شررها ليس كهذا الشرر الذى يشبه الحباءة اليسيرة ، وإنما هو شرر ضخم ضخامة غير معهودة ، وهنا يسعف التشبيه ، فيمد الخيال بالصورة ، حين يجعل لك هذا الشرر كأنه أشجار ضخمة تتهاوى ، أو جبال صفر تتساقط ، « إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر » وأما الجنة فى سمة لا يدرك العقل مداها ، ولا يستطيع التعبير أن يحدها ، أو يعرف منتهاها ، ويأتى التشبيه ممداً فى الخيال ، كى يسبح ما يشاء أن يسبح فيقول : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » .

وهكذا ترى التشبيه يعمل على تمثيل الغائب حتى يصبح حاضرا ، وتقريب البعيد النائى حتى يصبح قريبا دانيا .

ولجأ القرآن إلى التشبيه يصور به فناء هذا العالم الذى تراه مزدهراً أمامنا عامراً بألوان الجمال ، فيخيل إلينا استمراره وخلوده فيجد القرآن فى الزرع يرتوى من الماء فيصبح بهيجاً نضراً ، يعجب رائيه ، ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر ويصبح هشيما تذروه الرياح ، يجد القرآن فى ذلك شبها لهذه الحياة الدنيا ، ولقد أوجز القرآن مرة فى هذا التشبيه وأطنب ، ليستقر معناه فى النفوس ويحدث أثره فى القلب ، فقال مرة : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا » . وقال مرة أخرى : « اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما » . وقال مرة ثالثة « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهارا فجعلنا حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

ولما كان للمال أثره فى الحياة الاجتماعية لعب التشبيه دوره فى التأثير فى النفس كى تسمح ببذله فى سبيل تخفيف أعباء المجتمع ، فقرر مضاعفة الثواب على ما يبذل فى هذه الناحية فقال فى موضع « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » . فلهذا التشبيه أثره فى دفع النفس إلى بذل المال راضية مغتبطة ، كما يغتبط من له جنة قد استقرت على مرتفع من الأرض ترتوى بما هى فى حاجة إليه من ماء المطر وتترك ما زاد عن حاجتها ، فلا يظل بها الماء حتى يتلفها كما يستقر فى المنخفضات ، فجاءت الجنة بثمرها مضاعفا . وفى مرة أخرى رأى مضاعفة جزاء الحسنة كمضاعفة الثمرة لهذا الذى يبذر حبة قمح فتخرج عودا يحمل سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » . وحاط القرآن هذه المضاعفة بشرط ألا يكون الإنفاق عن رياء . وهنا نقف أمام هذا التشبيه القرآنى الذى سبق تصويرا لمن يتصدق لا عن باعث نفسى ، نتبين إيحاءاته ، ونتلمس وجه اختياره ، إذ يقول سبحانه : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل ، فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين » ، أرأيت هذا الحجر الصلد قد غطته قشرة رقيقة من التراب فخاله الرائى صالحا للزرع والإنبات ، ولكن وابل المطر لم يلبث أن أزال هذه القشرة فبدا الحجر على حقيقته صلدا لا يستطيع أحد أن يجد فيه موضع خصب ولا تربة صالحة للزراعة ؟ ألا ترى فى اختيار كلمة الصفوان هنا ما

يمثل لك هذا القلب الخالى من الشعور الإنسانى النبيل ، والعطف على أبناء جنسه عطفا ينبع من شعور حى صادق ، ولكن الصدقة تغطيه بثوب رقيق حتى يخاله الرائى ، قلبا ينبض بحب الإنسانية ويبنى عليه كبار الآمال فيما سوف يقدمه المجتمع من خير ، ولكن الرياء والمن والأذى لا تلبث أن تزيلا هذا الغشاء الرقيق ، فيظهر القلب على حقيقته قاسيا صلبا لا يلين .

— ٦ —

وتأتى الكاف فى القرآن أحيانا لا لهذا التشبيه الفنى الخالص ، بل لإيقاع التساوى بين أمرين ، ومن أمثلة هذا الباب قوله تعالى « وعد الله المنافقين والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هى حسبهم ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم ، كالذين من قبلكم ، كانوا أشد منكم قوة ، وأكثر أموالا وأولادا ، فاستمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذى خاضوا ، أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الخاسرون » وقوله تعالى : « إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول ، فأخذناه أخذا وبيلا » ؛ فهو يعقد موازنة بينهم وبين من سبقهم ، ويبين لهم الوجوه التى يتفقون فيها معهم ، ولا ينسى أن يذكر ما أصاب سابقيهم . وإلى هنا يقف تاركا لهم أن يصلوا بأنفسهم إلى ما ينتظارهم من العواقب ، وإنها لطريقة مؤثرة فى النفس حقا أن تضع لها شبيها ، وتتركها تصل بنفسها إلى النتيجة فى سكينة وهدوء ، لا أن تقذف بها فى وجهها ، فربما تتمرد وتثور .

ومن كاف التساوى أيضا قوله تعالى « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ، وقد يلمح فى ذلك الرغبة فى إزالة الغرابة عن نفوس السامعين ، واستبعادهم نزول الوحى على الرسول ، فالقرآن يقرنه بمن لا يشكون فى رسالته ، ليأنسوا بدعوة النبى ؛ وقد يكون فى هذا التساوى مثار للتهكم ، كما فى قوله تعالى « ولقد جئتمونا فرادى ، كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » ؛ أو مثار للاستنكار ، كما فى قوله « ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » فسر الاستنكار كما ترى هو تسوية عذاب الناس بعذاب الله .

وقد تأتى الكاف وسيلة للإيضاح ، وتقوم هى وما بعدها مقام المثال للقاعدة ، ولغير خاف ما للمثل بضرب من التأثير والإقناع ؛ ومن ذلك قوله تعالى : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار ، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » ، فجاء بآل فرعون مثالا لأولئك الذين لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا . ومن كاف الإيضاح قوله سبحانه : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » وقوله : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيه ، فتكون طيرا بإذنى »

أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم

تاريخ الأدب العربى

للاستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ، ومستيعاب موجز وتحليل مفصل واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع اثنى عشرة مرة فى ٥٢٥ صفحة
وثمنه أربعون قرشا عدا أجرة البريد